الزواج

تبعاً للرسالة البابوية «Casti connubii»

بحث اخلاقي لاهوتي

للاب شرل ابيلا اليسوعي

منشأ الزواج من الله وضعاً وطبعاً

٣

٧ الادلة على تأصل الزواج الحقيقي في الطبيعة (تابع)

ب – وجوب الحب المتبادل والتعاون في الزوجين

على ان ثمة ، علاوة على الغاية المذكورة ، غاية اخرى اسمى منها بطبقات . ألا وهي الحب المتبادل والتعاون اللذان لا غنى عنهما للزوجين ، من حيث صالحهما الشخصي وصالح بنيهما.

ولستُ اقول انّ وجودهما اكيد مقرّر في كل زواج حقيقي . فقد تحول دون تحقيقهما عوامل مختلفة ، أخصها سوء التربية وتسرّع احد القرينَين او كليهما الى الارتباط بالزيجة بدون ما تبصر من قبل.

قال سيدنا البابا : « لا يمكن الانكار ان الاسّ الوطيد للزواج المني. واسباب الخراب للزواج التعس تنشأ وتوضع في قلوب الفتيان والفتيات منذ زمن الحداثة والشبوبية . لان الذين كانوا قبل ان يتزوجوا لا يسعون الا وراء ما يتعلق بشخصيتهم ومصالحهم الخاصة ويستسلمون الى شهواتهم ، يُخشى عليهم ان يبقوا في حالة الزواج على ما كانوا عليه قبلها ، وكذلك ان... يحصدوا ما يكونون قد زرعوا ، أعني ان يكون نصيبهم بين جدران بيوتهم الحزن والبكاء والازدراء المتبادل والنزاع والاختلافات والملل من الحياة المشتركة...

« اما الاستعداد القريب للزواج الصالح فيقوم خصوصاً بالاجتهاد في اختيار الزوج ، اذ عليه يتوقف كثيراً ان يكون مستقبل الزواج سعيداً او غير سعيد . فان احد الزوجين يمكن ان يكون منه للآخر امّا عضد عظيم للحياة المسيحية في حالة الزواج وامّا خطر عليها وعائق لها . . . فعلى طالبي الزواج ان يعمدوا الى التبصّر ملياً قبل اختيار الشخص الذي سيقيّدون من بعد بالعيشة معه على الدوام . . . واخيراً لا يهملوا الطلب الى والديهم ان يدلوا اليهم ، في شأن انتخاب الزوج ، بما تملي عليهم الفطنة من النصح . . . »[1]

فاذا ما روعيت هذه النصائح ، تسنى للزوجين الوفق والحب والتعاون ، لان الزواج المشروع موجّه من طبعه نحو تحقيق هذه المزايا بل نحو انمائها على مدى الايام ، ولاسيا اذا كان القرينان متصمّين بتقوى الله متكلّين على عونه تعالى وخصوصاً على نعمة سرّ الزيجة ، التي سيأتي الكلام عنها في مقال آخر .

اما القِران الطليق فانّى له ان يضمن الائتلاف والتعاون للقرينين والسلام للعائلة ، واسّه الانانيّة والشهوة ، وقوامه حرية الانفصال وعدم الثبات في المودّة . او ليس السبب في تسميته طليقاً كونه ، في عرف مروّجيه ، يحرّر الرجل والمرأة من كل ما من شأنه ان يوحّد قلبيهما ؟

أوَ لا يُمتهَن الحب البشري الصحيح النبيل ويُدنَّس قطيعاً بان يُحصر بتمامه في قضاء الوطر للشهوة الحيوانية ، كأ لو لم يكن بتاتاً ، في شعور الزوجين ، غيره مماّ هو اعلى منزلة واشرف منزعاً ، مماّ هو صميم في الانسان متأصل في ذات روحه ، من مودّةٍ مضطرمة لا شفاء لغليلها الّا ببذل النفس في سبيل الشريك في الحياة والاعباء ، وحنانٍ في غاية الرقة لا يرضى الّا بان يكون بينهما كاملًا دائماً ، وانشغافٍ يدفعهما الى التفاني بدون ما تجزئة ولا انقطاع ، ورغبة شديدة في ان يُخلدا كيانهما بذريةٍ صالحة لهما . فاين من هذا كله الحبُّ الفيزيولوجي الصرف الذي شاء ناقضو الزواج ان يحصروا فيه كل ما يكنّه قلب القرينين من عواطف المودة الصادقة .[2]

---

١) الرسالة *Casti connubii* ص ٤٦ – ٤٨

٢) راجع كوله في المحلّ ذاته ، ص ٤٠ – ٤٥

ت – غايةُ الزواج العليا في ايلاد البنين وتربيتهم

على انَّ الحب المتبادل والتعاون ، مهما علا شأنهما ، انما هما واسطةٌ توّصل الزوجين للبلوغ الى غاية هي اسمى غايات الزواج واشرفها واهمها ، ألا وهي ايلاد البنين وتربيتهم ، مما لا ينكره عاقل.

قال الحبر الاعظم : « اوّل خيرات الزواج النسل...

« امّا كون هذه منّة عظيمة من الله وخير كبير للزواج فيظهر جليًا من منزلة الانسان وغايته القصوى . فان الانسان يفوق سائر الخلائق المنظورة حتى بسموّ طبيعته العاقلة وحدها . أضف الى ذلك أنَّ الله يريد ان يولد الناس لا ليوجدوا فقط ويملأوا الارض ، بل بالاحرى ليصيروا عبيده ويعرفوه ويحبّوه ، فيتمتّعوا بالسعادة الابدية في السماء . وهذه الغاية ، من حيث انَّ الله رفع الانسان بنوع عجيب الى نظام فائق الطبيعة ، تفوق كل ما رأته عين وسمعت به اذن وخطر على قلب بشر[1].

« ومن ثمَّ يتبيَّن بسهولة ان الاولاد الذين يُخلَقون بقوة الله ضابط الكل وبمشاركة الوالدَين ، هم عطية عظيمة تمنحها جودة الله ، وثمرة للزواج زكية.

« وليعلم الوالدون المسيحيون انهم لم يُمدّوا لتكثير الجنس البشري وحفظه على الارض فقط ، او لتربية عباد للاله الحقيقي أيًا كانوا فحسب ، بل ليُقيموا لكنيسة المسيح نسلًا ورعية مع القديسين واهل بيت الله[2] ، حتى يزداد نموًا مع الايام الشعب المخصّص لخدمة الله ومخلّصنا يسوع...

« فاذا تأمّلت ذلك الامُّ المسيحية الحقّة ، تُدرك دون ريب أنَّ كلام فادينا قد قيل عنها ، بمعنى اسمى وشديد التعزية ، « المرأة حين تلد تحزن... لكن اذا ولدت الطفل لا تعود تتذكر شدّتها من اجل الفرح ، لأنه قد وُلد انسان في العالم »[3] بل تتفوّق على آلام مهنتها الوالدية واتعابها واعبائها ، فتفتخر

---

١) كورنتس ١ : ٢٨

٢) افس ٢ : ١٩

٣) يوحنا ١٦ : ٢١

بالرب باكليل البنين المجيد ، الذي يكلل رأسها .»[1]

ولكن قل لي ، رعاك الله ، اين هي الواسطة الفعّالة المثلى ، الضامنة تحقيق هذه الغاية العليا ، التي تتوخّاها الطبيعة وخالقها من قِران الزوجين ؟ أين تتيسّر اسبابها على احسن منوال وافضل اسلوب ، طبقاً لما تقتضيه الفطرة البشرية وجوباً وتتمنّاه استحساناً ؟ أفليس في الزواج الحقيقي المشروع ؟ أوليس ثمة فقط يتسنّى للناس ان يتفوّقوا ، بتجديد الحياة متواصلاً ، على ما يُلحق بهم الموت من الخسارة كلّ ساعة وكلّ دقيقة ؟ ام ليس ثمة فقط تُعزَّز تربية البنين ، بتعاون الاب والام الطبيعي ، فينشأ للمجتمع اعضاء عديدون يصلحون صحّةً وذكاءً وادباً لخدمته والسير به في مدارج الفلاح بضروبه جميعاً ؟ أمّا القِران الطليق أفلا يؤول ، من ذات طبعه ، الى تلاشي النوع وانقراضه تماماً سريعاً ؟

يدلّنا الاختبار ان الصِلات العارضة المتنقلة هي غالب الاحيان عقيمة لا ينتج عنها ثمرة . وكذا قل عن القِران الطليق مهما قيل انه يختلف عن الصلات المذكورة . فمن اهمّ اسباب العقم ، بعد تعدّد الرجال للمرأة الواحدة ، هو تنصّل المرأة من اعباء الحبل وهمومَ الامومة وآلامها . ولا عجب فيما اذا كان هذا هو استعدادها اكثر الاوقات في حالة القِران الطليق . ذلك لعدم وجود رابطة ادبية توثق زوجها بها وتُلزمه جانبها . فتخشى دائماً ان يخونها ، بل ان يخطر بباله هجرها في نفس الساعة التي بها تكتنفها اخطار الولادة وارجاعها وعواقبها . ومن ثمّ نادراً ما ترضى بان تصير امّاً ، بل تحول دون ذلك بكل ما لديها من الذرائع ، ولا تسل عمّا يستنبط منها عقلها المذعور من اهوال الولادة .

ولو فرضنا جدلاً وسلّمنا حيناً ان النسل ، في حالة القِران الطليق ، يأتي فعلاً ، على ما تفرض الطبيعة ، لبقي المولود في الغالب على كاهل الامّ وحدها ، مهجوراً واياها من أبٍ لم يدفعه الى القِران المذكور سوى قضاء الوطر للشهوة الانانية ، بدون ما حسابٍ لعواقب ما اتاه من العمل ، مهما كانت خطيرة .

---

١) الرسالة Casti connubii ص ٥ — ٧

والحال انَّ الوالد والوالدة يجب ان يتكاملا ، ليس فيما يتعلق بولادة البنين فحسب ، بل بتربيتهم ايضاً .

فظاهرٌ ان الطفل ، بخلاف صغار الحيوان ، هو ذو نموّ بطيءْ للغاية ، تمرّ عليه سنوات قبل ان يبلغ جسمه وعقله وارادته الى الحدّ الذي يستغني به عن التربية والتهذيب . وظاهرٌ ايضاً ان خالق الطبيعة انما قصد بذلك أن يبقى الابن في عهدة أبويه وعلى تبعتهما طويلاً . فانه قد شاء ، عزّ وجلّ ، ان يشتركا في حماية ضعفه وتخريج عقله وتثقيف ضميره كما اشتركا في ايجاده حياً .

جاء في الرسالة البابوية : « انَّ خير الاولاد لا يتم بولادتهم ، بل هناك خير آخر ينبغي الاهتمام به ، وهو يقوم بتربية الاولاد التربية المقتضاة . وفي الحقيقة لو أنَّ الله الكلي الحكمة لم يخوّل حقّ التربية ويفرض واجبها على الذين اعطاهم قوّة الانسال وحقّه ، لما كان اعتنى بالولد المولود بل بجميع الجنس البشري العناية الكافية . فانه لا يمكن ان يخفى على احد أنَّ الاولاد لا يمكنهم ان يهتمّوا لانفسهم فيكفوها ما تحتاج اليه ، حتى في ما يتعلّق بالحياة الطبيعية . فكم بالاحرى في ما يختصّ بالحياة الفائقة الطبيعة . بل انهم يحتاجون سنين عديدة الى ان يساعدهم غيرهم ويرشدهم ويربّيهم . ومن الواضح الجليّ أنه ، بامر الله وايعاز الطبيعة ، يرجع اولاً حق تربية البنين وواجبه الى اولئك الذين باشروا عمل الطبيعة بالولادة ، ثم حُظر عليهم تحظيراً ان يعرضوا العمل المباشر لخراب اكيد بتركهم اياه غير متمم . على انَّ هذه التربية الضرورية جداً للاولاد قد روعي امرها على احسن ما يمكن في الزواج الذي به يرتبط الوالدان ارتباطاً لا ينفصم فلا يزالان مستعدّين العمل معاً والتعاضد »[1] .

قال السيّد بونوملي اسقف كريمونا في مؤلّف له عن الطلاق : « لا بدّ من اثنين لإثبات الحياة ولا بدّ ايضاً من اثنين المسير بها الى حيث تنتفر تماماً . فما من الاب وحده سوى سطوة جافية الى حدّ الافراط وعقلٌ ابرد من الثلج وقوّةٌ ثقيلة مرهقة . وما من الأمّ وحدها سوى حبّ بدون ما حدّ معقول ، ولينٍ بدون ما ضابط ، ورقّةٍ بدون ما مقوّم . فكلاهما مجتمعَين لا غنى

---

١) المحل ذاته ص ٧

عنهما للتربية. وقد جمعت الطبيعة بينهما ووحّدتهما على نحو عنصرَين يتكملان فينبلج منهما في روح الولد النور والحرارة.»[1]

ولست اجهل ان بعض المعاصرين من منتحلي علم الاخلاق يمدون الزوجين بان تحلّ الحكومة محلّهما ، فتأخذ على عاتقها تربية بنيهما ، فينفسح لهما المجال الى الانقياد لعمى نزعاتهما الغريزية على ما يمنّ ويطيب لها . فاليوم قِران وغدا فراق ، وكذا الى ما شاء الله ، ما دام ليس من رابطة ادبيّة توثقهما ، ولا من مهمّةٍ عائليّة يتقيّدان بها .

ولكن تُرى هل في مكنة الحكومة ، اذا ما تعهّدت تربية البنين ، ان تمنعَ النساء من الالتجاء الى كل الوسائل التي تحول دونَ ايلادهم ، ولاسيما اذا ما أُقنعنَ ان الغاية من وجودهنَّ في العالم عموماً ، وقِرانهنَّ خصوصاً ، انما هي التنعّم والتلذّذ ؟ اوَ ليس هذا هو المبدأ الكاذب الذي يستند اليه مذهب القِران الطليق ؟

ثم هَبْ ولادتهم امرًا اكيدًا واقعاً . أفلا يبقى ان الحكومة ، مهما نشطت ومهما كان لها من القدرة ، لا يمكن أن تقوم مقام الاب والام لدى البنين ؟ وان فرضنا أنّ موظّفيها هم أنزه خلق الله واشدّهم اعتصاماً بالواجب وتفانياً في سبيله ، فهل تستغني العائلة ، بغيرتهم الرسمية ونشاطهم المأجور ، عمّا رسمت الطبيعة على محيّا الاب من سمات السلطة ، وعمّا نفثت في قلب الامّ من عواطف الحب والحنان ؟ والى مَ يؤول الامر بالبشرية اذا ما امست تجهل من الشعور الجبلّي حتّى اعذبه واشدّه واعرقه في القلب ، اعني به حب الاب والام لبنيهما ، الذي يسري مع الدم في عروقهما ؟ قد قيل عن الذئاب انها تفترس بعضها بعضاً . ولكن لم يُسمع قطّ انّ الانثى منها تخلّت يوماً عن مولودٍ لها . فما بال متفلسفينا يحاولون ان ينتزعوا من افئدة الامهات في البشر ما ركّزته الطبيعة ووطّدته حتّى في تراقب إناث الوحوش ؟[2]

(لها بقية)

١) ذكره برنبره في المحل ذاته ، ص ٨١

٢) راجع كرله في المحل ذاته ، ص ٤٥ – ٤٩